

شعر السجن عند ابن زيدون الأندلسي: دراسة وصفية وتحليلية

Prison Poetry of Ibn Zaydūn al- Andalusiy: Descriptive and Analytical Study

Tema Penjara dalam Puisi Ibn Zaydūn al- Andalusiy: Kajian Deskriptif dan Analisis

محمد جاسر أسعد*

ملخص البحث:

ابن زيدون من الشعراء الأعلام، وقد اشتهر بشعره الغزلي بمحبوبته ولادة بنت المستكفي بالله، واقترن اسماهما معاً كاقتران عنتره بعبلة وقيس بلبلَى وكثيرٍ بعزة، لذا فقد تناولت جُلّ الأبحاث التي درست شعره الموضوع الغزلي، أما هذه الدراسة فتطرقت إلى موضوع السجن في شعره حيث نُكِب ابن زيدون بالحبس، ونظم -وهو في محبسه- أشعاراً كثيرة، وهذا البحث الوصفي التحليلي يتناول موضوع السجن في شعر ابن زيدون حيث يُسلط الضوء فيه على سبب سجنه، والمدة التي قضّاها في الحبس، وأهم المواضيع التي تناولها في شعره ذلك قبل أن يُعرّج البحث على موضوع الاستعطاف وهو الموضوع الرئيس في شعره. ويحاول البحث بيان مدى تأثير هذه الموضوعات الشعرية في الموضوع الرئيس سلباً أو إيجاباً، ثم يستخلص البحث الأسباب التي جعلت الشاعر يخفق في تحقيق هدفه المتمثل في استردار عطف سجّانه "أبي الحزم بن جهور" الذي لم يستجِب للشاعر، وأصرّ على إبقائه في الحبس، ثم خُتم البحث بالقصيدة الميمية التي تُلحِقها المصادر الأدبية بالرسالة الجدّيّة التي كتبها ابن زيدون في سجنه على اعتبار أنّها جزء منها، ويبيّن البحث أنّ هذه

* طالب دكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها - الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

القصيدة ليست جزءاً من الرسالة المذكورة، بل إنّ هذه القصيدة قد نظمها الشاعر بعدما فر من سجنه.

الكلمات المفتاحية: ابن زيدون – شعر – الاستعطاف – السجن – الأندلس.

Abstract:

Ibnu Zaidun was a well-known poet of his time. He was made famous by his love poems dedicated to his lover Walladah binti al-Mustakfi billah. They have become a famous couple like ‘Antarah and ‘Ablah and Qays and Layla or Kusayr and ‘Uzzah. No wonder that most of the studies focused on this type of his poem, but for the purpose of this study, we would focus on the poems he produced during his incarceration, highlighted on the events that led to it, the period that he spent in prison and the most important themes in the poems. The study will focus on the theme of asking for sympathy as found in many of the poems, his desperation when the freedom that he asked for was turned down by his jailer Abu Hazm al-Jahhur. The paper is concluded with one of his poem which included a letter which the literary sources said was part of the poem itself but we concluded that it was not part of the letter but a separate poem of Ibnu Zaidun after he managed to escape from the prison.

Keywords: Ibnu Zaidun– Poem– Asking for Sympathy– Prison– Andalus.

Abstrak:

Ibnu Zaidun adalah antara penyair besar, beliau terkenal dengan puisi cintanya terhadap kekasihnya Wallādah Binti Al-Mustakfī Billāh, sehingga nama mereka dipasangkan seperti ‘Antarah dan ‘Ablah, Qays dan Laylā dan Kuthaiyyir dan ‘Izzah. Kebanyakan kajian yang dibuat tentangnya pasti menyentuh tema percintaan. Namun, kajian ini adalah tentang tema penjara dalam puisinya di mana beliau telah dipenjarakan dan mula menulis puisi yang banyak ketika masih di dalam penjara. Kajian yang bersifat analisa secara diskriptif ini akan menyentuh tema penjara yang di antara kandungannya ialah sebab dia dipenjarakan, tempoh penahanannya dan tema-tema puisinya sepanjang tempoh tersebut sebelum menjurus kepada tema ‘rayuan’ yang merupakan tema utama. Kemudian, pengkaji akan melihat kesan positif dan negatif tema-tema yang lain ke atas tema utama. Secara keseluruhannya, pengkaji akan menyelidik perkara yang menghalang penyair daripada terus meminta belas kasihan pegawai penjaranya Abu Al-Hazm Bin Jahawwar yang tidak pernah mempedulikan rayuannya, dan bertegas mengkalkikan penyair dalam penjara. Kajian diakhiri dengan puisi ‘Mimiyah’ yang dianggap sebahagian daripada ‘Ar-Risālah Al-Jiddiyah’ yang ditulis penyair semasa di dalam penjara, tetapi, menurut kajian ini puisi tersebut ditulis setelah beliau keluar dari penjara.

Kata kunci: Ibnu Zaidun– Puisi– Rayuan– Penjara– al-Andalus.

المقدمة:

كانت القرون الثمانية التي شهدت مكوث العرب المسلمين في الأندلس حقبة ناصعة، كلها ازدهار وتألّق، وكان الازدهار والتألّق ينعكسان على الجانب السياسي والعسكري، وأحياناً على الجانب الفني والأدبي، وأحياناً أخرى على الجانب العمراني.

عندما يُذكر الجانب الأدبي والفني في الأندلس يُذكر الشعر، وعند ذكره يخطر على البال -أول ما يخطر- أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن زيدون المخزومي المتوفي سنة ٤٦٣هـ، وقد واكب ابن زيدون نهاية العصر الأموي ومعظم عصر ملوك الطوائف (٤٢٢-٤٨٤هـ)، حيث كانت الحقبة الانتقالية ومدة ملوك الطوائف التي تلتها حقبة اضطراب سياسي فأدى ذلك إلى ضيق اقتصادي، وقلق اجتماعي، فضاقت الصدور، وأظلمت القلوب، وظنّ الناس ببعضهم الظنون، فأمست نفوسهم متباعدة، وقلوبهم متنافرة.

سبب سجنه:

أحظى أبو الحزم بن جهور حاكم قرطبة ابن زيدون، وقربه منه، وقلّده الوزارة في دولته، "ومنحه لقب ذي الوزارتين وهو لقبٌ للوزير الذي يعمل مع الملك في تدبير الملك، ويتولى عنه بعض الشؤون من جيش أو جباية، فيكون تصرفه في شؤون الرعية بالقول والفعل"،^١ وظلت العلاقة بينهما حسنة لا تشوبها شائبة ولا يُعكّر صفوها مُعكّر "إلى أن وقع لابن زيدون طلب صيرّه إلى الاعتقال"،^٢ ولم يُعرف سبب هذا الاعتقال، "وإن كانت المصادر تتفق على أنّه سُجن بتأثير الوشايات من أعدائه وحسادته، أما نوع هذه الوشايات فغامض مجهول لم يُعرف على جهة القطع"،^٣ لكنّ الباحثين المحدثين توقعوا أسباباً لسجنه، فمنهم من رأى أنّ اتّهامه بالاستيلاء على عقار لبعض مواليه بعد وفاته أدى به إلى السجن،^٤ ومنهم من جعل حبسه بسبب هجائه المقذع للوزير ابن عبدوس غريمه في حبّ ولادة،^٥ ومنهم من عزا حبسه إلى سبب آخر وهو تعطش نفس ابن زيدون للمجد، وتسويلها له بالإنقلاب على أبي

الحزم، واستخلاص الأمر لنفسه، مستغلاً حنين الناس إلى الخلافة الأموية، وتدميرهم من حُكم أبي الحزم الذي ساهم ابن زيدون في صنعه، وأسهم في رفعه، ولعل هذا هو السبب المرجح لاعتقاله لأن أشد ما يخشاه الحكام هو تطلع من حولهم إلى السلطة، وهم لا يتورعون عند الضرورة عن ضرب أقرب المقربين اليهم، حتى لو كانوا أخوة لهم بل أبناء،^٦ وعليه فإن الأسباب الأخرى تُعدّ تافهة لا يُعقل أن يقضي ابن زيدون لأجلها مدة طويلة من الاعتقال تحت سمع أبي الحزم وبصره، وقد كان علماً من أعلام دولته، وركناً من أركانها، ويلتحق ابن زيدون في شعره إلى سبب اعتقاله، ويبيّن أنه ارتكب ذنباً غير متعمّد، فقام اعداؤه وحساده بتحويل أمره، وإظهاره بمظهر الذنب العظيم الذي لا يُغتفر، لكنّ ابن زيدون لم يوضح ماهية هذا الذنب يقول:^٧

ومثلي مَنْ تَهْفُو بِهِ نَشْوَةَ الصَّبَا ومثلك مَنْ يَعْفُو وَمَالِكَ مِنْ مِثْلِ
هِيَ النَّعْلُ زَلَّتْ بِي فَهَلْ أَنْتَ مُكْذِبٌ لِقِيلِ الْأَعَادِي إِتْمَا زَلَّةَ الْحَسْلِ

ومهما يكن السبب الذي لأجله سُجن ابن زيدون، فقد كان لكارهيه وحساده دور كبير في إيغار صدر أبي الحزم عليه، حيث يُظهر نفسه بمظهر الإنسان البرئ المفترى عليه الذي سُجن بسبب "نميمة أهداها كاشح، ونبأ جاء به فاسق".^٨

مدة سجنه:

سُجن ابن زيدون في ريعان شبابه، ولما يبلغ الثلاثين من عمره، ويشير إلى ذلك في قصيدة نظمها في سجنه حين يقول:^٩

لَمْ تَطْوِ بُرْدَ شَبَابِي كَبْرَةً وَأَرَى بَرَقَ الْمَشِيبِ اعْتَلَى فِي عَارِضِ الشَّعْرِ
قَبْلَ الثَّلَاثِينَ إِذْ عَهْدَ الصَّبَا كَتَبَ وَلِلشَّبِيْبَةِ غَصْنٌ غَيْرَ مَهْتَمِرٍ

ولبت في سجنه خمسمائة يوم، أشار إليها في بيتين من الشعر، الأول استعطف به ابن جهور يقول فيه:^{١٠}

أفصبرُ مئين خمسٍ من الأيا م ناهيك عن عذاب ألميم
أما الثاني فقد قاله في قصيدة عقب فراره من السجن يترجى فيها صديقه أبا بكر بن
مسلم أن يشفع له عند أبي الحزم بن جهور: ^{١١}
مئون خمساً من الأيام قطعها أسيرٌ وإن لم يبدُ شدُّ ولا قمطُ
وهذا يعني أن ابن زيدون مكث في سجنه نحواً من ستة عشر شهراً وعشرين يوماً.

شعره في السجن:

وقف البحث على سبع قصائد ومقطوعة شعرية واحدة نظمها ابن زيدون في سجنه إضافة
إلى القصيدة الميمية، وقد خاطب ابن زيدون سجنه أبا الحزم بن جهور في كل اشعاره التي
نظمها في السجن إلا القصيدة السينية التي أرسل بها إلى صديقه أبي حفص بن برد علّه
يتوسط له ويتشفع فيه عند الأمير أبي الحزم.

كان الاستعطاف هو الغرض الرئيس في أشعار السجن عند ابن زيدون، ولم يقتصر
الشاعر على هذا الغرض بل تناول غرضاً شعرياً واحداً أو أكثر لتكون أغراضاً ثانوية تساعده
في تحقيق حلمه المتمثل في كسب عطف من يستعطفه واستمالة قلبه، وكان المديح من أكثر
الأغراض ملازمة للاستعطاف حيث تطرق الشاعر في معرض مدحه لأبي الحزم إلى المعاني
التقليدية التي تناولها الشعراء السابقون، فالممدوح يتصف بالحكمة والتقوى والمروءة والكرم
والسهر على الرعية، ولم يكتف الشاعر بمدح الأمير بل تعداه إلى مدح آل جهور عامة: ^{١٢}

يغشى التجارب كهلهم مستغنياً بقريجة هي حسبته تجريباً
وإذا دعوت وليدهم لعظيمة لباك رقراق السماح أديباً

وعلى الرغم من أن التنويه بالشجاعة والإشادة بها كانا من المعاني التي طالما تغنى بها
الشعراء المادحون في شتى العصور، إلا أن الشاعر رأى أن يمدح الأمير بطريقة مغايرة: ^{١٣}
وزيرٌ سلم كفاه يمن طائره شؤم الحروب ورأي محصد المرر

ولعلّ مرد ذلك هو ميل الناس إلى السلم في عصر الطوائف، ونبذهم الجهاد، وخلودهم إلى الدّعة، فلم تُعد صفات الشجاعة والإقدام والاستبسال بالصفات التي تُترب الممدوح، ويرغب أن يوصف بها.

كما كان الهجاء غرضاً آخر تناوله الشاعر، حيث كان يحاول دائماً تبرئة نفسه، فينفي التهم المنسوبة إليه، ويُظهر نفسه بمظهر الأنسان البرئ الذي افتري عليه الحساد والوشاة كي ينالوا منه، لقد هجا الشاعر حسّاده والوشاة المفترين عليه، ولكنّ معاني الشاعر في الهجاء كانت تقليدية مطروقة كمعانيه في المديح، فهؤلاء الأعداء والوشاة يقابلون إحسان الشاعر بالإساءة لأنهم يحسدونه على سمو حاله ورفع قدره، يقول مرواحاً بين هجائه إياهم وفخره بنفسه: ^{١٤}

وقد تسمع الليثَ الجحاشُ نهيها وتُعلي إلى البدر النباح كلابُ
إذا راق حسن الروض أو فاح طيبه فما ضره إن طنّ فيه ذباب

إلى جانب ذلك فقد أكثر ابن زيدون من الفخر بنفسه والإعتداد بها، ولا سيما في أشعاره التي نظمها في بدايات نكبته ومفتتح سجنه، فقد بدا رجلاً واثقاً من نفسه، محافظاً على كرامته، تشيع في أشعاره روح الكبرياء والأنفة من ذلّ القيد وكبوة الحظ حتى ليكاد يكون شعره في بدايات نكبته "فخرّاً واعتداداً أكثر منه تنصلاً واستعطافاً"، ^{١٥} فالشاعر ليس كالليث والبدر والروض الفوّاح كما وصف نفسه في البيتين السابقين وحسب، بل هو إنسان حلِيم عالم، يتقدم على أقرانه كما يتقدم الجواد السابق على سائر الجياد، وإذا كان السجن نكبة فإنّ العظماء - ويعد نفسه منهم - هم الذين يُنكبون دون غيرهم: ^{١٦}

هل الرياح بنجم الأرض عاصفة أم الكسوف لغير الشمس والقمر
وهو كالسيف الذي أودع غمده، وكالأسد الذي يتهياً للانقضاض، أما وقد أودع السجن فلم يُعطَ ما يستحق: ^{١٧}

فتأمل كيف يغشى مقلّة الجعد النعاس
ويفتت المسك في التتر ب فيوطاً ويعداس

لقد فخر الشاعر بنفسه وبالغ في ذلك، و"كأنّه لم ينظم الشعر لإرضاء شخص آخر غير نفسه".^{١٨}

ولعل ابن زيدون ارتأى أن يُكثر من الفخر بنفسه - في إشعاره موضوع البحث - لتحقيق غايتين: الأولى لفت نظر الأمير إلى أنه ليس كعامّة الناس، وإنما هو من عليّة القوم وخاصتهم، لذا ينبغي ألاّ يهان ولا يعاقب جراء ذنب غير متعمد اقترفه، فعظم شأنه وعلو مكانته وخدماته التي قدّمها للأمير كلها أمور كفيّلة بتخفيف ذنبه وغفران زلته:^{١٩}

قل للأمير وقد قطعت بمدحه زمي فکان السّجن منه ثوابي

أما الغاية الأخرى فهي محاولة إبعاد التذلل وإهراق ماء الوجه بحيث يظهر بمظهر الإنسان المتماسك المحافظ على كرامته خلال استعطافه، ولكنّ هذا الأمر كان في بدايات سجنه ولم يستمر.

كان الاستعطاف هو الغرض الرئيس في جميع الأشعار التي نظمها الشاعر في سجنه، وقد كان في بدايات سجنه يظنّ أنّ ما يتعرض له نكبة عابرة وسحابة صيف سرعان ما تنقشع، لذا فقد كان يخاطب سجّانه أبا الحزم بنقّس تشيع فيه عزة النفس والمحافظة على الكبرياء، ثمّ أخذ هذا النفس يتلاشى شيئاً فشيئاً حيث يتضح عبر موازنة بين أبياته الشعرية الآتية - التي نظمها مستعطفاً - مقدار التراجع الكبير الذي طرأ على كبرياء الشاعر واعتداده بنفسه، يقول في قصيدة نظمها في بدايات نكبته:^{٢٠}

فلم أسثر حرب الفجار ولم أظع مسيلمة إذ قال أني من الرسل
ومثلي قد تهفو به نشوة الصّبا ومثلك من يعفو ومالك من مثل

ويقول في قصيدة أخرى:^{٢١}

قد كنت أحسبني والتّجم في قرن ففيم أصبحت منحطّاً إلى العقر
لا تله عني فلم أسألك معتسفاً ردّ الصّبا بعد إيفاء من الكبير

وعندما لم يستجب سجنائه أبو الحزم لاستعطافه خاطبه بقصيدة أخرى يقول فيها:^{٢٢}
 مالي وللأيام حج مع الصّبا عدوانها فكسا العذار مشييا
 أنا سيفك الصدي الذي مهما تشأ تعدّ الصّقال إليه والتذرييا
 ويصل الشاعر إلى حضيض اليأس، ودرك المذلة حين يصف نفسه بالإنسان "الذليل"
 الذي استبدّ به اليأس وفقد الأمل بالعفو والصفح، يقول:^{٢٣}

إبائي في جواركم الدليل وحدي في رجائكم الكليل
 أتحيا أنفس الآمال فيكم ولي اثناءها أمل قتييل
 إن موازنة سريعة بين الأبيات السابقة التي نظمها الشاعر في سجنه تبين أنّ ابن زيدون
 الذي بدا في مفتتح نكته قويّاً، معتداً بنفسه، محافظاً على كرامته لم يبقَ كذلك بل أخذ
 يضعف، ومع هذا الضعف أخذ الشاعر يتخلى عن اعتداده بنفسه، وحفاظه على كرامته،
 بل إنّه أهرق ماء وجهه حين تسللت عبارات الدّل والهوان إلى شعره، فتارة ينعت نفسه
 بالسيف الصدي، وأخرى بالإنسان بالذليل الذي يلتمس العطف ويستجدي الرحمة.

والحقيقة أن هذا "الخط البياني" الهابط في الكبرياء والعزة نجده عند شعراء أندلسيين
 آخرين استرحموا واستعطفوا بعدما نُكّبوا وكان جُلّهم من أرباب المناصب العليّة، والمراتب
 الرفيعة كالوزير المصحفي وابن عمار وأيضاً ابن زيدون الذي كان يُلقب بذي الوزارتين، وفي
 هذا دلالة على أنّ هؤلاء لم يكونوا أهلاً للرئاسة والجاه وأتماّ نهضوا من الحضيض إلى المناصب
 الرفيعة، ولكنّ نفوسهم ظلت تنطوي على صغار ذاتي، فلما جردوا من مناصبهم، وتعرضوا
 للمحن بدت حقائق جوهرهم فأمعنوا بالتدلل المهين والإستعطاف المشين.

كان ابن زيدون في بدايات نكته يعتني بقصائده مبنئاً ومعنى، فكان يُعدد الأغراض في
 القصيدة الواحدة خدمةً للغرض الرئيس وهو الاستعطاف، كما كان ينوّع في بدايات قصائده
 حيث افتتح قصيدته اللامية التي (نظمها الشاعر في مفتتح حياته التعسة بسجنه)^{٢٤} بذكر
 الطبيعة التي ينبغي أن تشاركه همومه وأحزانه، عواطفه ومشاعره، يقول:^{٢٥}

ألم يأن أن يبكي الغمام على مثلي ويطلب ثأري البرق منصلت النَّصل
وهل أقامت أنجم الليل مأتما لتندب في الآفاق ما ضاع من نثلي

واستهلَّ الشاعر قصيدة أخرى بالنسيب مجارة للشعراء الأقدمين: ^{٢٦}

ما جال بعدك لحظي في سنا القمر إلا ذكرتك ذكر العين بالآثر
فهمت معنى الهوى من وحي طرفك لي إنَّ الحوار لمفهومٌ من الحور

كذلك افتتح القصيدة التي أرسلها الى صديقه أبي حفص بن برد بالحكمة: ^{٢٧}

ما على ظيِّي باس يجرح الدهر ويأسو

كان الشاعر في مفتتح نكبته وبداية محنته يظنّ أنّ محنته ستزول وشدته ستدول، وأنّ ما يتعرض له "سحابة صيف عمّا قليل تنقشع" ^{٢٨}، فأخذ ينظم القصائد الطوال ويجوّدها، ويتفنن فيها ويضمنها أغراضاً شتى يكون الاستعطاف إحداها، وكان يهدف من وراء ذلك إلى إظهار مقدرته الشعريّة ثمّ الحصول على عفو أبي الحزم وصفحه، أما عندما طالت محنة الشاعر، وكُسر جناحه، وفلّ حدّه عند ذلك لم يبق له إلاّ هدف واحد، وهو الانفكاك من قيود المحنة التي قيدته، فأخذ ينظم القصائد التي يستعطف بها حيث كان يبدأ القصيدة بالمديح والاستعطاف ولا يتطرق إلى غرض آخر سواهما.

أكثر ابن زيدون من استلهام التراث، ويبدو من شعره أنّه كان ذا خبرة عريضة، وثقافة واسعة بعلوم الدين والأدب والتاريخ، وقد ضمّن ثقافته تلك أشعاره الاستعطافية، وكان القرآن الكريم في مقدمة المصادر المعرفية التي أفاد منها الشاعر، حيث ظهر جلياً تأثيره في أسلوبه، واتخذ من قصصه وسيلة لعرض قضيته وبيان براءته ومن ذلك يقول: ^{٢٩}

بأبي أنت إن تشأ تكُ برداً وسلاماً كنار إبراهيم

وعندما عرض بالوشاة شبّههم بأخوة يوسف -عليه السلام- حين قال: ^{٣٠}

كان الوشاة وقد مُنيتُ بإفكهم أسباط يعقوب وكنت الذّيبا
 أما عندما خاطب أمّه الباكية خوفاً على مصيره فقد حثها على التّأسي بأّم موسى -
 عليه السلام- وفي ذلك قوله: ^{٣١}

وفي أم موسى عبرة إن رمت به إلى اليم في التابوت فاعتبري واسلي
 وفي معرض نفيه للتهم التي اتّهم بها خاطب ابن جهور قائلاً: ^{٣٢}

أنكث فيك المدح من بعد قوة ولا اقتدى إلا بناقضة الغزل؟
 ويشير الشاعر في هذا البيت إلى الآية الكرّمة ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ
 قُوَّةٍ أَنْكَا ۚ ﴾ ^{٣٣}

ولما التمس الشاعر شفاعة صديقه أبي حفص بن برد مهّد لذلك بالتعبير عن المودة التي
 يكنها لصديقه ابن برد: ^{٣٤}

وودادي لــــك نــــصٌ لم يخالفه قيه قياس
 لقد دلّ الشاعر في هذا البيت على علمه بأصول الفقه حيث أنّ النص أقوى مصادر
 التشريع ويفوق المصادر الأخرى كالقياس والأجتهد أهمية.

وفي القصيدة ذاتها يشكو الشاعر اصدقاءه الذين انقلبوا عليه بعدما تنكروا له: ^{٣٥}
 ما ترى في معشر حالوا عن العهد وخاسوا
 ورأوني ســــامرياً يُتقى منه المساس
 والشاعر هنا يشير الى قصة السّامري الذي أضل بني اسرائيل بعدما خرج موسى -عليه
 السّلام- لمناجاة ربه.

وإلى جانب القرآن الكريم فقد وظّف الشاعر معرفته التاريخية الواسعة في شعره، من
 أجل تحقيق هدفه، ومن ذلك قوله مخاطباً سجّانه أبي الحزم: ^{٣٦}
 فلم أستشر حرب الفجار ولم أطع مسيلمة إذ قال أيّ من الرسل

كما تأثر ابن زيدون بالأشعار التي نُظمت قبله، ولا سيما المشرقية منها حيث أفاد من معانيها وألفاظها وصورها فعندما يقول: ^{٣٧}

يلبد الورد السّـبنتي ولـه بـعد افـتـراس
فإنه ينظر إلى قول ابن الرومي: ^{٣٨}

سكنت سكوناً كان رهنأً بعدوة عماس، كذاك الليث للوثب يلبد
وعندما يُشبه نفسه وقد سُجن بالسيف الذي أودع غمده فإنما يأخذ هذه الصورة من علي بن الجهم: ^{٣٩}

قالوا: حُبست، فقلت ليس بضائري حبسي وأيّ مهند لا يُغمَد

كذلك فقد تأثر ابن زيدون بأبي تمام والمتنبي وغيرهما من الشعراء المشاركة.

القصيدة الميمية:

كتب ابن زيدون الرسالة الجديدة في سجنه مسترحماً سجنه الأمير ابن جهور، وُخِمت هذه الرسالة بقصيدة ميمية على إعتبار أنّ القصيدة جزء من الرسالة - كما جاء في المصادر الأدبية -، ولكنّ ثمة إشارات تدل على أنّ القصيدة ليست جزءاً من الرسالة، بل إن ابن زيدون كتبها في وقتين متباعدين، فالرسالة الجديدة كتبها الشاعر وهو يرزخ في قيود السحن وأرسلها إلى الأمير ابن جهور، أما القصيدة الميمية فقد خاطب بها الشاعر أحد الوزراء: ^{٤٠}

أُيهدا الوزير ها أنا أشكو والعصا بدء قرعها للحليم

ويلتمس الشاعر من هذا الوزير التوسط له والتشفع فيه، ويثني عليه ثناءً يفوق ثناءه على الأمير، فهو بشفاعته وتوسطه كالرياح التي تُولف بين السحب المتفرقة فتجمعها، والفضل في انحمار المطر يعود لهذه الرياح وليس للغيوم المتبعثرة: ^{٤١}

للشفيع الثناء، والحمد في صو ب الحيا للرياح لا للغيوم

ولا يجد قارئ هذه القصيدة ذكراً للسجن فيها، فالشاعر يطلب من هذا الوزير أن يذلل له الصَّعب، ويعيده إلى حمى الأمير: ^{٤٢}

وزعيمٌ بأن يذلل الصَّع ب مثابي إلى الهمام الزعيم

كما أن الشاعر كرر المعاني والصَّور التي تناولها في قصائده السابقة التي أرسلها إلى ابن جهور، فقد شبه نفسه في هذه القصيدة بالشمس والقمر اللذين يُكسفان دون غيرها من النجوم: ^{٤٣}

قمر الأفق إن تأملت والشَّم س هما يُكسفان دون التَّجوم

كذلك يشبهها بالحصان الذي سئم المرابط: ^{٤٤}

ما عنانا أن يأنف السَّابق المر بط في العتق منه والتطهيم

وبالسيف الذي أفسده طول البقاء في غمده: ^{٤٥}

وبقاء الحسام في الجفن يثني منه بعد المضاء والتَّصميم

ومن المستغرب أن يكرر الشاعر هذه الصور في قصيدة يرسلها لابن جهور وقد خاطبه بها سابقاً دونما جدوى.

وكما هو معلوم فقد لبث ابن زيدون في سجنه خمسمئة يوم، ونراه في هذه القصيدة يذكر هذه المدة: ^{٤٦}

أفصبرُ مئتين خمساً من الأي ام ناهيك عن عذاب أليم

ويستبعد أن يكون ابن زيدون قد نظم هذه القصيدة في آخر يوم له في السَّجن، فقد كان مشغولاً بأمرٍ أهم من نظم الشعر وهو الفرار من السجن: ^{٤٧}

ففرت فإن قالوا الفرار إرابةً فقد فرّ موسى حين همّ به القبط

لذا فقد يكون من الموحَّح أن الشَّاعر قد نظم قصيدته الميمية بعد فراره من السَّجن، وألحقها برسالة أرسلها إلى أحد أصدقائه مستشفعاً فيه، حيث لم تصلنا جميع الأعمال النثرية

التي كتبها ابن زيدون، فقد ذكر المقرئ أنّ لابن زيدون كتاباً في التاريخ بعنوان " التبيين " لم يصلنا منه إلا فقرات قليلة وردت في كتاب نوح الطيّب، لذا فلربما ضاعت الرسالة ولم تصلنا، وجاءت القصيدة ملحقة برسالة اخرى هي الرسالة الجديدة.

لماذا أخفق ابن زيدون في استعطاف أبي الحزم بن جهور؟

يبدو أنّ أبا الحزم كان متيقناً من أنّ الشاعر قد اقترب ذنباً، فأصر على إبقائه في السحن لينال عقابه، لكنّ الذي يهمننا هنا هو تلك الهنات والعيوب التي حوتها أشعار ابن زيدون والتي جعلته يفشل في استمالة قلب الأمير إليه، واستدرا عطفه، فالشاعر عندما كان يخاطب أميره من وراء القضبان (كان يخاطبه على شئ من الاعتداد بأدبه، ويفاخر الشعراء ويساميهم)،^{٤٨} كما كان مفتخراً بنفسه - كما مرّ في الأشعار السابقة - (مدركاً لمزايه، غير مسترسل في مدح ابن جهور إلا من خلال نفسه).^{٤٩}

كما أنّ هناك أبياتاً استشف أبو الحزم من معانيها إساءة له، وانتقاصاً منه فهذا هو الشاعر يهدد بالالتجاء إلى غيره من الأمراء، وإن قال ذلك على سبيل التهكم على من يزيّن له ذلك السبيل:^{٥٠}

يا مرشدي جهلاً إلى غيره أغنى عن المصباح ضوء الصّباح

ونجده في قصيدة أخرى يتعجل أجل أميره وإن كان هذا التعجل متزيّناً بحلل المديح:^{٥١}

يا بهجة الدهر حيّاً وإن فويت حياته زينة الآثار والسيّر

كما نراه يصف ما تعرض إليه من سحن وعناء بنار البغي التي سرت إلى جنّة الأمن فأحالتها صريماً، وكأنّه بذلك ينعت الأمير بالبغي والظلم:^{٥٢}

نار بغي سرى إلى جنّة الأمن لظاها فأصبحت كالصريم

ونرى هذا المعنى مكرراً في بيت آخر:^{٥٣}

ولله فينا علم غيب وحسبنا به عند جور الدهر من حكم عدل
 حتى الرسالة الجدوية التي "حاول ابن زيدون أن ينحو فيها نحو النابغة في إعتدارياته،
 واستعطف بها في تذلل وتملق"،^{٥٤} لا تخلو من معانٍ تتناهى ومقام الأمير، كقوله في ختامها
 "وإنما أبست^{٥٥} لك لتدر، وحركت لك الحوار^{٥٦} لتحن".^{٥٧}

لذلك لم تُجدِ أشعار ابن زيدون نفعاً إذ بقي يريخ في سجنه حتى استطاع الهرب
 "..... ولم أستطع صبراً، ولم أستحز أن أكون ثالث الأذلين: العير والوتد، وذكرت أنّ الفرار
 مما لا يُطاق من سنن المرسلين، وقد قال تعالى على لسان موسى: ﴿فَقَرَّرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ﴾^{٥٨}
 وقال الشاعر:^{٥٩}

لا عار لا عار في الفرار فقد فرّ نبي الهدى إلى الغار

الخاتمة:

خاطب ابن زيدون سجّانه أبا الحزم بن جهور -شعراً ونشراً- مباشرة، كما خاطبه من خلال
 وسيط، وكان خلال مخاطبته إياه محافظاً على كبريائه، مُعتدلاً بنفسه حيناً، ومُبدياً الخضوع
 والتذلل وإهراق ماء الوجه في أحيانٍ أُخرى، وقد مزج الشاعر الاستعطف وهو الغرض الرئيس
 في شعره بأغراض شعرية أُخرى كي تساعده في تحقيق هدفه المتمثل بإطلاق سراحه واسترداد
 حريته، كذلك استعرض ابن زيدون فنه الشعري، وثقافته الواسعة خلال أشعاره الاستعطفية،
 ولكن -لأسباب يبيّنها البحث- لم يستجِب أبو الحزم للشاعر، وأصرّ على إبقائه في محبسه
 إلى أن هرب منه بعدما قضّى فيه خمسمئة يوم.

هوامش البحث:

^١ أبو خشب، علي ابراهيم، تاريخ الأدب العربي في الأندلسي، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٦)، ص ٣٤١.
^٢ المغربي، ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب تحقيق: شوقي ضيف، ط، ٢ (القاهرة: دار المعارف، د.ت)، ج ١،
 ص ٦٣.

^٣ حسن، حسن جاد ابن زيدون عصره - حياته - أدبه (مصر: المطبعة المنيرية، ١٩٥٥م)، ص ٦٦.

^٤ انظر: ضيف، شوقي، ابن زيدون ، ط، ٩ (مصر: دار المعارف د. ت)، ص ٢٣؛ والجيوسي، سلمى الخضراء الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ط ١، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨م)، ج ١، ص ٥١٤.

^٥ انظر: الطباع، عبد الله أنيس القطف اليناعة من ثمار جنة الأندلس الدائية، ط ١، (بيروت: دار ابن زيدون، ١٩٨٦م)، ص ١٩٠.

^٦ انظر: اللقاق، عمر ملامح الشعر الأندلسي، ط ١، (بيروت: دار الشرق، ١٩٧٥م)، ص ١٣٥.

^٧ ابن زيدون، ديوان ابن زيدون، شرح وتحقيق: كرم البستاني، (بيروت: دار صادر، ١٩٧٥م)، ص ١٦٢.

^٨ الشنتري، ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ط ١، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٩م)، قسم ١، المجلد (١)، يُنظر فيه الرسالة الجديدة لابن زيدون، ص ٣٤٠ - ٣٤٦.

^٩ ديوان ابن زيدون، ص ١٤٨.

^{١٠} السابق نفسه، ص ١٢٤.

^{١١} السابق نفسه، ص ٨٦.

^{١٢} السابق نفسه، ص ١٣٢.

^{١٣} السابق نفسه، ص ١٤٩.

^{١٤} السابق نفسه، ص ١٢٠.

^{١٥} حسن، جاد حسن ابن زيدون عصره - حياته - أدبه، ص ١٨٥.

^{١٦} ديوان ابن زيدون، ص ١٤٩.

^{١٧} السابق نفسه، ص ٨٢.

^{١٨} الزكاي، جودت في الأدب الأندلسي، ط ٢، (مصر: دار المعارف د. ت)، ص ١٩٨.

^{١٩} ديوان ابن زيدون، ص ٢٥٥.

^{٢٠} السابق نفسه، ص ١٦٢.

^{٢١} السابق نفسه، ص ١٥١.

^{٢٢} السابق نفسه، ص ١٣٣.

^{٢٣} ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ط ١، تحقيق: علي عبد العظيم، (مصر: مكتبة تحفة مصر، ١٩٥٧م)، ص ٣٣٢.

^{٢٤} ضيف، شوقي ابن زيدون، ص ٦٠.

^{٢٥} ديوان ابن زيدون، ص ١٥٩.

- ٢٦ السابق نفسه ، ص ١٤٧ .
- ٢٧ السابق نفسه ، ص ٨٢ .
- ٢٨ انظر: الرسالة الجديدة لابن زيدون، في الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، قسم ١، ليمجلد (١)، ص ٣٤٠ - ٣٤٦ .
- ٢٩ ديوان ابن زيدون، ص ١٢٩ .
- ٣٠ السابق نفسه ، ص ١٣٣ .
- ٣١ السابق نفسه ، ص ١٣٣ .
- ٣٢ السابق نفسه ، ص ١٦٠ .
- ٣٣ سورة التَّحْل آية: ٩٢ .
- ٣٤ ديوان ابن زيدون، ص ٨٢ .
- ٣٥ السابق نفسه ، ص ٨٢ .
- ٣٦ السابق نفسه ، ص ١٦٢ .
- ٣٧ السابق نفسه ، ص ٨٣ .
- ٣٨ ابن الرّومي ديوان ابن الرّومي، ط ١، تحقيق: أحمد بسج، (بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٩٩٤م)، ج ١، ص ٣٨١ .
- ٣٩ ابن الجهم علي ديوان علي بن الجهم، (بيروت، دار الآفاق الجديدة د.ت)، ص ١٥٣ .
- ٤٠ ديوان ابن زيدون، ص ١٢٤ .
- ٤١ السابق نفسه ، ص ١٢٥ .
- ٤٢ السابق نفسه ، ص ٤٢ .
- ٤٣ السابق نفسه ، ص ١٢٤ .
- ٤٤ ديوان ابن زيدون، ص ١٢٤ .
- ٤٥ السابق نفسه ، ص ١٢٤ .
- ٤٦ السابق نفسه ، ص ١٢٤ .
- ٤٧ السابق نفسه ، ص ٨٧ .
- ٤٨ البستاني، بطرس أدهاء العرب، (بيروت: دار مارون عبود، ١٩٧٩م)، ج ٣، ص ١٣٤ .
- ٤٩ الزكابي، جودت في الأدب الأندلسي، ص ٢٦٦ .
- ٥٠ ديوان ابن زيدون، ص ١٤٦ .
- ٥١ السابق نفسه ، ص ١٥٠ .
- ٥٢ السابق نفسه ، ص ١٥٢ .

- ^{٥٣} السابق نفسه ، ص ١٦٠ .
- ^{٥٤} الفاحوري، حنا **الجامع في الأدب العربي**، (بيروت: المكتبة البوليسية، د.ت)، ج ١، ص ٩٢٧ .
- ^{٥٥} بس بس صوت تُدعى به النَّاقَة أو الشَّاه للحلب. انظر: **المعجم الوسيط**، (مصر، دار المعارف، ١٩٧٢م)، ج ١، ص ٥٥ .
- ^{٥٦} الحوار: ولد النَّاقَة من يوم ولادته إلى أن يُفطم ويفصل. انظر: **المعجم الوسيط** ج ١، ص ٢٠٥ .
- ^{٥٧} الرسالة الجديّة لابن زيدون ينظر إليها في: الشنتيني، ابن بسّام، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، قسم ١، المجلد (١)، ص ٣٤٠ - ٣٤٦ .
- ^{٥٨} سورة الشعراء، الآية ٢١ .
- ^{٥٩} الشنتيني، ابن بسّام **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، قسم ١ ، مجلد ١، ص ٣٥٦ .